➢ طبيعة النثر الجاهلي:

يوشك الدارسون ممن عملوا في الحقل الادبي القديم، وعلى وجه التحديد حقل النثر الجاهلي الا يبلغوا النتيجة المقنعة التي بلغوها في الشعر، فيما يتعلق بروايته وتوثيق ما وصل الينا منه،
وذلك لأسباب متعددة يتصل بعضها بطبيعة هاتين اللغتين، ويتصل البعض الآخر بطبيعة الظروف التي احاطت بهما.

واذا كان الشعر قد وجد من يتولاه بالاهتمام والرعاية والحفظ بالرغم من قلة الكتابة وعدم شيوعها وانعدام وسائلها، فأن النثر وجد نفسه مهملا ينظر اليه نظرة تلي الشعر في الاهمية سواء اكان ذلك من جهة العلماء والرواة ام من جانب المتذوقين والناس يضاف اليه ندرة الكتابة والكاتبين واقتصارها على اصحاب الشأن والسلطة ؛ لذلك وجد بين الباحثين القدامى من يصدر حكمه قائلا: ((**بأن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور اكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره**))[1] واما اسباب هذه الحالة التي صار اليها النثر قبل الاسلام ، فهي كما ذكرنا في مطلع هذه السطور، تعود الى طبيعة الشعر المتميزة اذا قيست بطبيعة النثر. وقد التفت الباحثون الى هذا الجانب الحيوي ، من هذه القضية فأولها دراسة واهتماماً منذ ازمان متقدمة.

فعقد لنا ابن رشيق فصلا مهما في دراسة الشعر والنثر [2] وجعل يفضل احدهما على الاخر وفق تقويم خاص ذاكرا ما يمتاز به الشعر على النثر ، وكيف عملت هذه المميزات على بقاء الشعر وضياع النثر. وخص ابن رشيق الوزن والقافية

[1] البيان والتبيان للجاحظ 194/1 طبع دار الفكر، بيروت 1968 العمدة ص 20. والقول لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي.
[2] المصدر السابق ص 19 وما بعدها من الصفحات.

بجانب من اهتمامه جاعلا الشعر بسببهما اشبه بحبات العقد في السموط.
فالشعر فيهما احفظ له من الضياع واذا قيس بالنثر اذ بدونهما صار عرضة للتبديد والتبديل الفقدان.
ثم خرج ابن رشيق بنتيجة اخيرة هي تفضيل الشعر على النثر وذكر ما راه وجيها من الاسباب في هذا التفضيل وفرز القران الكريم عن جميع انواع النثر باعتباره معجزة لغوية من عين كلام الناس يتحداهم الخالق بها ان يأتوا بمثلها. ولقد حاول قسم من المستشرقين استثمارها في وضع نظرية تفيد بأن قالب القران الكريم من القوالب الشعرية فرفضت النظرية من المستشرقين انفسهم وعلى رأسهم (**تيودور نولد كه**) الذي صرح برفض هذه النظرية ثم جاء هذا العصر من يشايع ابن رشيق في النظر الى القران الكريم بانه لا يصنف في حقل النثر الجاهلي ولا يوضع تحت نوع من انواعه بل قال الدكتور طه حسين عن النثر القرآني ، باننا اذا شئنا تصنيفه بين انواع الكلام فأنه ليس بشعر ولا بنثر وانما هو قران [3] . ولسنا نريد ان نتابع ابن رشيق في تفضيل الشعر على النثر ولا ان نعكس موقفه فنزعم خلاف ذلك بل الذي يهمنا ان نعرف من هذا الباب من كتابه. انه عالج قضية ضياع النثر وعزاها الى انعدام الوزن وعدم توفر القافية فيه ، ثم اجتهد فعمد الى تفضيل الشعر على النثر فضاع النثر وبقى الشعر.
واما الاسباب المتعلقة بطبيعة الظروف المحيطة بالشعر والنثر، فقد اتجه الناس الى الشعر بعد معجزة القران الكريم وبروز جانبه الاسلوبي واللغوي فجفت نفوسهم اساليب الجاهليين النثرية وجعلت تطيب الى النثر القرآني بينما ظل الشعر موئل علمهم وموطن استمتاعهم حتى انهم كانوا

[3] لمزيد من الاطلاع يمكن مراجعة مادة (قرآن) ي دائرة المعارف الاسلامية وكتاب تاريخ القرآن للمستشرق تيودور نو لدكه وكتاب العربية ليوهان فك.

يفسرون كثيرا من اللفاظ القرآن بأبيات من الشعر الجاهلي. واستشهد ابن عباس في ذلك ورووا عنه الاعاجيب في الاستشهاد والحفظ والتفسير.

اعتاد الباحثون ان يوجهوا الى انفسهم السؤال الاتي : **ايهما اسبق في الظهور على الاخر الشعر ام النثر**: وكيف تسنى لنا معرفة ذلك ؟ وطبيعي ان هذا الحواب يقودنا الى البحث عن الجذور الاولى للنثر العربي واوليته التي بدأ بها طفلا ثم استوى يافعا بعد ان نما وترعرع حتى اصبح على صورته الفنية الناضجة. على اننا منذ البداية نود ان نتبنى رأي ابي العلاء في رسالة الغفران حول عدم اخذه بالرأي القائل يومئذ بأن اللغة العربية كانت لسان آدم – عليه السلام - على جلالة قدر العربية وكون القرآن الكريم نازلا بها. لكننا لا ننكر ان تكون العربية اقدم الساميات واوضحها وافضلها ، بالرغم من تهاون نفر اخرين بهذا الامتياز متأثرين بالمستشرقين وسواهم، لكن آدم وهو ابو البشر، اذا كان قد تحدث بلهجة سامية ، فهي الجزء الغامض للعربية القديمة الذاهبة. وعلى ذلك رفض كل نثر وشعر ورد على لسانه لكننا لا نقر ابا العلاء على استبدال السريانية لسانا لابي البشر، لأنه حتى النصوص المتوفرة لدينا بأنه اقدم النصوص ، لأننا قد نفاجأ بحوار نثري بين شخصيتين قديمتين جدا تسبق مرحلة امريء القيس والمهلهل أبن ربيعة.

وعلى ذلك فالحكم بأولية النثر وقدمه مسألة ليست هينة ولا يمكن اعطاء صورة لطفولة هذا النثر كما لا يمكننا ايضا الحكم بسبق نوع منه على بقية الانواع ، لان الخطبة ترتبط بحياة الناس في السلم والحرب وكذلك المثل وسجع الكهان.

واذن فقضية النثر ليست كالشعر وذلك عندما حاولنا ان ندرس اوليته من طبيعة تركيبه واستعماله وما يرافقه من الشعائر

والطقوس. لكن بعض المؤشرات في النثر تفيد بانه ارتبط بمعطيات دينية ايضاً ، فقد وردت انماط نثرية خاصة برجال الدين من الكهان واصحاب الدعوات الغيبية التي ورد ذكرها في المصادر على انهم انبياء جاهليون.